الفصل الثامن

حب الطفوله

كم أوجعت قلبي ..

قصة الطفلة " وفاء " [1] ..

كانت وفاء .. ذات الخمس سنوات .. تعيش مع أبيها وأمها في سعادة ..

ليس لها في الدنيا غير أمها .. التي تحبها حبا جما .. وأبوها الذي يحبها كثيرا

رغم انشغاله الدائم عنها بعمله الذي لا ينقطع ..

و رغم أن هذا العمل لا يدر له إلا القليل ..

وجاء اليوم الذي حمل للصغيرة .. ولقلبها الصغير .. أسوأ الأخبار ..

فقد ماتت أمها ..

وأصبحت وحيدة .. بائسة ..

بعد أن أطفأ الموت الشمعة الوحيدة في حياتها ..

بعد أبيها ..

وكان أن تركزت كل مشاعر الحب على أبيها ..

فلم يعد لها سواه ..

.....

(1)- ترجمة لفكرة قصة قصيرة غير معروف كاتبها .

obeikan.com

ومرت الأسابيع ..

جلست الطفلة تفكر ..

بعد عدة أيام سوف يأتي عيد ميلاد بابا .. وعلي أن اقدم له هدية عيد الميلاد ..

فماذا أفعل ..

إنني لا أملك نقودا .. فكيف أشتري له هدية ؟! ..

وكان لديها صندوق جميل ..

أحضرت وفاء الصندوق .. وفتحته .. كان خاويا ..

ولكنه كان صندوقا جميلا ..

ورأت وفاء أنه يفي بالغرض ..

في كل صباح .. عندما تصحو وفاء ..

كانت تحضر الصندوق .. وتفتحه .. وتضع في داخله " قبلة " ..

وهي تقول " صباح الخير يا بابا .. أنا بحبك أوي " ..

وفي المساء .. وقبل نومها .. كانت تقول .. وهي تقبل الصندوق ..

" تصبح علي خير يا بابا .. أنا بحبك أوي " ..

وكررت وفاء هذا .. كل صباح ..

وكل مساء ..

حتي جاء يوم عيد ميلاد أبيها ..

obeikan.com

فأحضرت وفاء الصندوق ..

وفتحته .. ونفخت فيه قبلتها وأغلقته ..

وهي تقول " كل سنة وانت طيب يا بابا .. أنا بحبك أوي " ..

واتجهت في سعادة غامرة إلى أبيها ..

وتلألأت عيناها بالفرح ..

فلقد استطاعت أن تعد هدية جميلة لعيد ميلاد أبيها ..

سوف يفرح أبي كثيرا بهذه الهدية ..

سوف أخبره أنني سعيدة .. بعيد ميلاده ..

إتجهت إليه .. لكي تقدم له هدية عيد ميلاده ..

وكان يجلس علي المائدة .. استعدادا لتناول طعام الإفطار ..

وقد بدى عليه عدم الرضا .. لما وصل إليه الحال في أعماله ..

التي انخفض عائدها إلي درجة كبيرة ..

رغم مضاعفة مجهوده ..

قالت له ..

وقد وقفت علي أطراف أصابعها .. حتي تدرك وجهه ..

وقبلته في خده .. قبلة .. أودعتها كل حبها ..

الذي يحمله قلبها الصغير .. لأبيها ..

ومدت له يدها الرقيقة .. حاملة الصندوق ..

ووجهها يفيض فرحا .. وسعادة ..

قالت في حب وسعادة .. كاد قلب الصغيرة أن ينفطر لها :

كل سنة وإنت طيب يا بابا .. هذه هي هديتك .. في عيد ميلادك ..

فقال الأب في دهشة :

ما هذا .. ماذا يوجد في هذا الصندوق ؟!

قالت الصغيرة .. ولا زالت عيناها تتلألآن .. سعادة وبهجة :

افتحه يا أبي .. وسوف تري الهدية التي أعددتها .. لكي أقدمها لك في عيد ميلادك ..

فتح الأب الصندوق ..

إنه لا يرى في الصندوق شيئا ..

صاح ثائرا :

إن الصندوق فارغ .. ليس به شيء ..

فقالت له برقة .. والإبتسامة لا تفارق شفتيها الصغيرتين :

كيف يا أبي .. ألا تري الهدية ؟! ..

وقف الأب مزمجرا .. يضرب الأرض بقدمه ..

قال وصوته يهز المكان :

أية هدية هذه أيتها الشقية البائسة ..

لقد جننت .. وذهب عقلك ..

هذا ما كان ينقصني ..

عليك اللعنة .. أنت وهذا الصندوق البائس ..

قالت الصغيرة باكية :

يا أبي ..

ألا تري قبلاتي .. التي أنفخها كل صباح .. وكل مساء .. في الصندوق ..

لكي أقدمها لك .. هديتي لك .. في عيد ميلادك ؟! ..

يبدو أن ضغوط الحياة .. وقسوة الأيام .. كانت قد تملكت من الأب ..

فلم يعد يتمالك نفسه ..

وفي قوة غضبه ..

ألقي بالصندوق علي الأرض ..

فتناثرت أشلاؤه في كل مكان ..

وصفق الباب خلفه .. ومضي إلي عمله ..

حزنت وفاء .. علي رفض أبوها للهدية ..

وحزنت علي الصندوق ..

الذي تناثرت أشلاؤه في كل مكان ..

وحزنت أكثر .. علي قبلاتها ..

التي تناثرت على الأرض .. مع أشلاء الصندوق ..

وتركت عينيها تجودان بما لديهما من الدموع ..

في بكاء مرير .. جدد حزنها علي فراق أمها ..

وحزنها علي وحدتها ..

وحاولت أن تجمع من أشلاء الصندوق ما استطاعت ..

حيث ارتبطت في ذهنها أشلاء الصندوق .. بقبلاتها ..

ووضعت هذه الأشلاء بجوارها في السرير .. تنام معها .. وتصحو معها ..

فلا أحد معها ..

ولا شيء لديها ..

سوى هذه الأشلاء .. المليئة بالقبلات ..

وبعد عدة أيام ..

وفي حادث دهس مريع ..

شطب فتى أرعن .. إسم الصغيرة وفاء .. من سجلات الأحياء ..

وفقدت وفاء حياتها .. وفاضت روحها البريئة إلى خالقها ..

وحزن الأب حزنا شديدا ..

حتي كاد قلبه يتوقف ..

وتألم أشد الألم ..

لفقده صغيرته .. التي كانت تملأ الدنيا عليه .. دون أن يدري ..

وكان يحبها حبا ملك عليه قلبه ..

ولكن ظروف حياته .. وضيق ذات اليد .. وتراكم الهموم ..

كل ذلك غطى على حبه للصغيرة ..

إلا أن فقدانه لها .. أيقظه ..

وكاد الحزن أن يذهب بعقله ..

فأخذ يجمع أشلاء الصندوق .. يصلحه .. ويعيده إلي ما كان عليه ..

ويفتحه كل مساء .. ويقول لروح إبنته :

" تصبحي علي خير يا صغيرتي .. بابا بيحبك أوي " ..

ثم ينفخ فيه " قبلة " .. يملأها الندم ..

وإذا أصبح .. يفتح الصندوق .. ويقول لروح طفلته :

" صباح الخير يا حبيبتي الصغيرة .. بابا بيحبك أوي " ..

ثم ينفخ فيه قبلة .. مبللة بالدموع ..

فهل نهمل الحب .. حتي يضيع من بين أيدينا .. ثم نتجرع الندم ؟! ..

إن الحب هبة إلهية .. وهبها المولى .. عز وجل .. للبشر ..

لتنير قلوبهم .. إذا ضلوا الطريق ..

وتكبح جماح عقولهم .. إذا تجبرت أفكارهم ..

فبالحب .. يصير الإنسان المتجبر .. إنسانا رقيق المشاعر .. مرهف الحس ..

وتتحول جبروت يديه .. التي يبطش بها .. إلى حضن حنون .. يضم به حبيبه

في رفق ..

ويتحول صوته وصياحه المجلجل في عنف وزئير ..

إلى همس .. ناعم جميل .. في أذن من يحب ..

ويتحول الشرر الذي يتطاير من العيون القاسية .. المتجبرة ..

إلى دموع رقيقة حزينة .. تذرفها تلك العيون نفسها ..

على مكروه أصاب الحبيب ..

إن الحب نعمة .. تصنع المعجزات ..

فلماذا نقسو على أحبائنا ..

لماذا نهمل حبهم لنا .. حتى يكون الأوان قد فات ..

إن الحب جوهرة .. هي أغلى من كل الأموال ..

إن كلمة " أحبك " .. هي للمحب .. أغلى من كل شيء ..

فلا تبخل بها ..

قل لمن تحب .. أنك تحبه ..

إجعله سعيدا ..

وسوف ترى .. كيف سوف تنعكس هذه السعادة .. عليك ..

obeikan.com

بل على حياتك كلها ..

فإن الآثار الإيجابية لهذه الكلمة .. هي مدهشة .. مذهلة ..

إن الأطفال الذين يشملهم الأبوان بالحب .. هم من يصنعون المستقبل المشرق ..

هم من يحملون الطاقة الإيجابية .. التي تشغل مصانع البلاد .. وتضيء مشاعل العلوم ..

والإبتكارت ..

هم من يحملون في قلوبهم الحب للجميع ..

ولقد أصبح من المسلّم به تربوياً .. أنّ مكتسبات سنوات الطفولة من عمر الإنسان ..

تترك آثاراً لا تمحى .. على مجمل حياته الخاصة والعامة ..

سواء كانت آثاراً إيجابية .. أو آثاراً سلبية ..

ففي هذه السنوات المبكرة من عمر أطفالنا .. يتمّ إرساء الأساسات الأولى

لشخصيّتهم المستقبليّة ..

فإمّا أن تُبنى كشخصيّة متوازنة .. تتمتّع بالإرادة القوية ..

وتكون نشطة وفعّالة وطموحة ..

وإمّا أن تكون على عكس ذلك ..

شخصيّة ضعيفة الإرادة .. إتكالية .. لا مبالية ..

عديمة الثقة بنفسها ..

عديمة الثقة بالأخرين ..

قد تكون مدمرة لذاتها ..

وقد تدمر الأخرين ..

قد يحكمها الحقد .. والكراهية ..

للمجتمع .. لكل شيء ..

وما نزرعه .. سوف نجني ثماره ..

فإذا كان الأمر كذلك ..

فعلينا أن نعرف ماذا نزرع ..

حتى لا نزرع الشوك ..

وبذور الشوك كثيرة ..

هي الميل .. ولو كان ميلا لا إراديا .. لصالح أحد أبنائنا .. على حساب أخيه ..

فيشب هذا الأخير .. على الحقد والكراهية لأخيه .. ثم يصاب بالإحباط ..

والشعور بالنقص .. والدونية .. فيفقد ثقته بنفسه .. وبالوالدين ..

ثم ينزوي عن عيون الأخرين .. ويفقد الثقة في الجميع .. ويفشل في تكوين

علاقات إجتماعية ناجحة متوازنة ..

فتنمو بداخله مشاعر العدوانية والكراهية .. لكل المجتمع ..

ولم يكن علاج هذا المشهد المأساوي المدمر .. منذ البداية ..

إلا أن يراعي الأبوان العدالة بين الأبناء .. في توزيع الحب بينهم بالتساوي ..

obeikan.com

وربما يدركون ذلك .. بعد فوات الأوان ..

ومن بذور الشوك ..

ما جرت عليه العادات السخيفة .. والتقاليد غير المبررة .. في مجتمعنا الذكوري ..

من تفضيل الأولاد .. على البنات ..

مبررين ذلك بمبررات أكثر سخفا ..

وهي أن الذكر سوف يخلد إسم العائلة .. ويمتد بها عبر السنين ..

فندلل الولد .. ونمنحه .. ما نحرم منه أخته ..

ونبالغ في قدراته .. وفي ذكائه .. إضافة إلى المبالغة في مديحه ..
ولا سيّما إذا كان لا يستحقّ ذلك ..

إنّ هذه الممارسات التربوية .. الأسرية .. الخاطئة وغير المتوازنة ..

تقود كلّها إلى تبدّلات جوهرية في نفس الطفل ..

بل في شخصيّة الطفل .. و يصعب التغلّب عليها فيما بعد ..

إذا استمرّت إلى مراحل متأخّرة ..

ونحن نفعل ذلك مع الإبن ..

بينما نتحدث عن أخته بالخيبة .. والغباء .. والكسل ..

ونتغاضى عن أخطائه .. بينما نواجه البنت بأقسى العقوبات . . البدنية .. والمعنوية ..

ثم نتمادى في أخطائنا .. فنسلم مقاليد تربية الأخت .. وتأديبها .. إلى الأخ ..

حتى ولو كان أصغر منها سنا ..

فيتمادى الولد في حبه لذاته .. وأنانيته المرضية .. النرجسية .. ويتمادى في تقدير قدراته .. وذكائه ..

فيصب كل اسقاطاته .. وإحباطاته .. ونواقصه .. وفشله .. على أخته .. التي تخلت عنها الأسرة ..

ويستغل السلطة التي تجمعت لديه .. فيعامل أخته بكبرياء.. وتعالي .. فيمنعها من كل ما هو مصرح به له ..

فهو رجل .. يفعل ما يشاء ..

فلا يكون هناك حدا للإهانات التي يوجهها إلى أخته .. بغير حساب ..

ولا يكون هناك سقفا لحبه لنفسه .. وغروره ..

ولا يكون هناك سقفا لنرجسيته .. وحبه لذاته ..

فتخرج أفعاله عن السيطرة ..

ولا يستطيع أن يكون علاقات متوازنة مع الآخرين .. ويفشل في دراسته .. ويفشل في حياته .. فيكون عجينة لينة في أيدي أصدقاء السوء .. الذين يستغلون كون كل طلباته في البيت مجابه ..

فيقبل على الممنوعات .. ويدمن المخدرات ..

وبدلا من أن نفخر بإبننا .. الذي استثمرنا فيه كل حياتنا .. كي يخلد إسم العائلة .. نتجرع الندم على تدليله .. والإسراف في تلبية مطالبه .. والإهمال في تربيته .. ونكون قد خسرناه .. إلى الأبد ..

فلا كان نافعا لنفسه ..

ولا كان نافعا لأسرته ..

ولا كان نافعا للمجتمع ..

وتكون الأسرة ذاتها قد خسرت شيئا آخر .. هو أقوى من الخسارة الأولى ..

بل أفدح ..

فعندما كان الإبن يتعامل بهذه القسوة مع الأخت .. الطفلة ..

وعندما كانت الأخت .. الطفلة .. تقارن بين معاملة الأسرة لها .. ومعاملتهم لأخيها ..

كانت تفقد ثقتها في نفسها شيئا فشيئا ..

كانت تستسلم للإحباط شيئا فشيئا ..

كانت تشعر بالجوع العاطفي ..

كانت تتلهف لسماع كلمة طيبة من أحدهم ..

كانت تشعر بالجوع الشديد للحب .. والحنان ..

وانتقلت الطفلة إلى سن المراهقة ..

وكان عليها أن تواجه الجنس الأخر ..

بعد أن اكتملت أنوثتها ..

لقد دمرتها الأسرة .. دون أن تدري ..

لقد حولت الأسرة .. جسدها كله .. إلى أذان .. متلهفة .. لسماع كلمات الإطراء ..

oberikan.com

والغزل ..

إلى سماع كلمات الحب .. والعواطف ..

إلى جسد يتلهف إلى حضن حنون ..

وقذفتها الأسرة .. بلا وعي ..

إلى حفنة من المراهقين ..

بلا خبرة لديها .. ولا تجارب .. ولا تحذير..

ولا يعلم إلا الله .. خطورة هذا الطريق ..

ولا مدي تورطها في علاقات إجتماعية .. قد لا يحمد عقباها ..

لقد دمرت الغيرة البنت من لحظات طفولتها المبكرة ..

فكانت تغار من الميل لأخيها ..

فاحتواها الإحساس بالنقص .. حتى فقدت ثقتها في كل شيء..

وسوف تلازمها هذه المشاعر السلبية .. إلى الأبد ..

ويكون من حقها أن تقول .. هذا ما جناه علي أبي ..

فما هي الغيرة ..

وهل من الغيرة أنواع ..؟!

هل هناك غيرة حميدة .. وغيرة مرضية ؟! ..

إن الغيرة شعور مدمر .. إذا ما تملك من الإنسان .. فأصبحت غيرة مرضية ..

obeikan.com

فهي شعور سلبي يبديه الفرد تجاه الآخرين .. بما فيهم المقرّبون منه ..
إذا ما قاموا بعمل يتمنّى فعله .. ولا يستطيع القيام به . .
والغيرة ظاهرة نفسيّة إجتماعيّة .. تضر بالكبار والصغار..
حيث تشكّل .. في كثير من الأحيان .. عامل ضغط .. وتوتر ..
يشل تفكير الفرد .. ويضعف قدرته على التكيف .. والتعامل مع الآخرين ..
نتيجة لما يتولد لديه تجاههم من الحقد والنفور والكراهيّة ..
فتشكل هذه الأمور مجتمعة .. مشكلة ..
تؤدي إلى فشل الفرد في حياته الخاصة والعامة ..
وقد تكون الغيرة أشد فاعلية عند الأطفال ..
بالنظر إلى حساسيتهم المفرطة .. وعدم قدرتهم على التحكم الإيجابي ..
بعواطفهم .. ومشاعرهم .. وإنفعالاتهم ..
وبالتالي عدم تمكنهم من إستيعاب الأحداث والمواقف الحياتية ..
وتحليلها بواقعية مجرّدة .. كما هي الحال عند الكبار ..
الذين يملكون قدرات من الوعي .. تمكنهم من تحليل الأمور والتعامل معها
بمنطقيّة وعقلانيّة . .

ومن الأسباب الأساسيّة التي تولد الشعور بالغيرة عند الأطفال ..
ذلك الجو الأسري الذي يعيشون فيه ..
بنظامه .. وعلاقاته .. وتفاعلاته ..
ولا سيّما تمييز الوالدين بين الأبناء ..
بصورة مباشرة أو غير مباشرة ..
سواء كان التمييز بين الكبار والصغار ..
أو بين الذكور والإناث ..
أو حين يأتي إلى الأسرة .. مولود جديد ..

ولا يعد الوالدان .. الأخوة .. لاستقباله ..
فيفقدون بعضاً من امتيازاتهم التي ينعمون بها ..
فتكون الغيرة ..

وتكون الأشواك .. هي حصادنا ..

obeikan.com